الأيوان والكنيسة والعمارة الاسلامية

بقلم : الدكتور مصطفى جواد

الايوان :

الايوان من الكلمات الاعجمية الفارسية التي استعارتها اللغة العربية استعارة حضارية وذلك لاستعارة العرب مدلولها العماري واتخاذهم اياه في أبنيتهم وقد جرت العادة أن تستعارالاشياء الحضارية بأسمائها أولا ثم يفكر في الاستبدال بها أو تبقيتها على حالها • وتسمية العامة «الليوان» على سبيل ابدال لام من الهمزة •

قال ابن الجواليقي في كتابه المعرب : « والايوان أعجمي معرب ، وقال قوم من أهل اللغة هو اوان بالتخفيف » • وقال اسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح : « والاوان والايوان : الصفة العظيمة كالازج ومنه ايوان كسرى • وقال (الراجز) : شطت نوى من أهلها بالايوان • وجمع الاوان أون مثل خوان وخون، وجمع الايوان ايوانات وأواوين مثل ديوان ودواوين لان أصله اوان فأبدلت من احدى الواوين ياءا » •

وقال الفيومي في المصباح المنير : « والاوان بيت مؤزج غير مسدود الفرجة وكل سناد لشيء فهو اوان له ، والايوان بزيادة الياء مثله ومنه ايوان كسرى » • وفي أساس البلاغة « الايوان بيت مؤزج غير مسدود الوجه » •

وقد ورد في تعريف الايوان أنه كالازج أو بيت مؤزج فما الازج وما التأزيج ؟ قال الفيومي في المصباح : « الازج بيت يبنى طولا ، وأزجته تأزيجا اذا بنيته كذلك ، ويقال : الازج السقف ، والجمع آزاج » • والازج من الكلمات العمارية المستعملة كثيرا في مصطلحات الحضارة العربية الاسلامية •

والايوان كما جاء في المعجم الموسوم ببرهان قاطع الفارسي هو عند الفرس الضفة أو الطاق ، وجاء في التعليق على الكلمة للدكتور محمد معين أنها في التعريب بفتح الهمزة وكسرها وأنها على

قول المستشرق زالمان مشتقة من الكلمة البهلوية الفارسية « بان » بمعنى البيت • وقد وردت بان الفارسية على صورة « بام » أيضا[١] • والبحث عن أصول الكلمات الحضارية يزيد في تاريخها ويحققه •

وأنا أرى أن الايوان كالديوان في التحليل الاشتقاقي ، فالديوان عندي مشتق من « داو » الفارسية بمعنى النفقات أو المؤونة و « بان » الفارسية بمعنى « حافظ » فهو حافظ النفقات والمؤونة •

والايوان مشتق من « أي » الفارسية بمعنى البيان و « بان » بمعنى حافظ فهو موضع البيان والشكوى • وكأنه بيت المظالم • والايوان نوع من أنواع الطيقان في الفن العماري ، قال ياقوت الحموي : « وأصل الطاق : البناء المعقود وجمعه الطاقات » • وقال ابن الجواليقي قبله : « الطاق فارسي معرب » وقال ابن منظور بعدهما في لسان العرب : « الطاق ما عطف من الابنية والجمع الطاقات والطيقان ، فارسي معرب ، والطاق عقد البناء حيث كان ، والجمع أطواق وطيقان » اهـ فأعلى الايوان طاق وأعلى الازج طاق وأعلى القبة العمارية طاق وكذلك ما في الحنية أي قوس البناء والحنيرة وهي عقد الطاق المبني ، وقوس القنطرة ، والعقد مطلقا ، وكانت أبواب محلات بغداد العتيقة عقودا ، مبنية بالآجر ، واشتهر منها عقد ابن عرب وعقد الحديد وعقد الزرادين وعقد مون السلطان وعقد الظفرية وعقد المكافين وعقد المأمونية وعقد المصطنع ، ويعرف اليوم بعقد القشل واليه تنسب محلة عقد القشل بجوار الشورجة •

وأما عقود بغداد في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد فقد ذكرها فيليكس جونس الانكليزي في تقريره وذكرنا أسماءها في كتاب « دليل خارطة بغداد المفصل » الذي ألفته أنا والدكتور أحمد سوسة وهي أكثر من مائتين وخمسين عقدا ، ويراد بالعقد منذ يومئذ الى الان الدرب ، فعقد القشل معناه « درب القشل » ونسي الناس أن المراد بالعقد هو الباب المعقود ، وهذا مألوف في التطور اللغوي والدلالة المتطورة للاسماء •

ان ابتداع التأزيج في البناء أي التقويس فيه ، وحز الحنائر كان فتحا عظيما في الفن العماري والريازة ، فهو يساوي اختراع العجلة في آلات النقل وأدواته ، مع اشتهار الرومان ببناء القناطر التي هي حنائر ، وببناء عقود الظفر المعروفة بأقواس النصر ، فأول من ابتدع الحنر والتأزيج والتقويس في البناء هم السمريون أقدم شعوب الارض حضارة وذلك في الالف الثالث قبل الميلاد ، وقد وجد الاستاذ لئونارد وولي الآثاري المعروف أقدم حنيرة على وجه الارض في أطلال مدينة أور ثم عرفت الحنيرة في مباني الكلدانيين أيضا •

وأقدم ايوان كبير عرف في العراق قديما وحديثا هو ايوان معبد شمس في مدينة الحضر وأواوين أخرى فيها كبيرة وصغيرة ، فان الاواوين الحضرية بنيت بالحجارة المهندمة في القرن الاول والقرن الثاني للميلاد ، وكان اردخلها (أي

(١) من ايضاح كتبه لي الدكتور احمد ناجي القيسي لأنه يتقن الفارسية •

بانيها بالآرامية) من الآراميين[٢] المستعربين أو العرب المستأرمين ، وكلمة الاردخل بمعنى الراز أي البناء الحاذق بقيت الى العصور الاسلامية ، وبها لقب والد الشاعر المعروف بابن الاردخل محمد بن الحسن ، قال ابن القفطي الوزير في كتابه « المحمدون » من الشعراء : « محمد بن الاردخل الموصلي والبناء بلغة أنباط الموصل يسمونه الاردخل ، وكان هذا في زماننا .. » . وقال ابن شاكر الكتبي : « والاردخل هو المجيد في البناء » . أما الراز فقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري : « هو راز البنائين (أي) رأسهم وكذلك راز أهل كل صناعة » ... وأصله رائز .. ولذلك جمع على رازة كسائس وساسة » .

والظاهر أن الساسانيين اقتبسوا طراز الايوان من أهل الحضر ، وهم الذين حاصروا هذه الدويلة السامية وهدموا مدينتها ، في عهد سابور الاول «٢٤١-٢٧٢م» كما ذكره فريق من المؤرخين أو عهد سابور الثاني الملقب بذي الاكتاف «٣١٠-٣٧٩م» كما جاء في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، وبنى الساسانيون ايوانهم المعروف بايوان كسرى ، في كتيزيفون المعروفة عند العرب قديما بالمدائن وطيسبون وطيسفون ، وحديثا ببلدة سلمان باك ، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : « الايوان ، آخره نون وهو ايوان كسرى ... الذي بالمدائن : مدائن كسرى ، زعموا أنه تعاون على بنائه عدة ملوك وهو من أعظم الابنية وأعلاها ، رأيته وقد بقي منه طاق الايوان حسب ، وهو مبني بآجر طول كل آجرة نحو ذراع في عرض أقل من شبر وهو عظيم جدا ، قال حمزة بن الحسن الاصفهاني: قرأت في الكتاب الذي نقله ابن المقفع أن الايوان الباقي بالمدائن هو من بناء سابور بن أردشير فقال لي الموبذان موبذان أميد بن أشوهست: ليس الامر كما زعم ابن المقفع فان ذلك الايوان خربه المنصور أبو جعفر وهذا الباقي هو من بناء كسرى ابرويز .. فعلى قول الموبذان انه خرب ايوان سابور بن أردشير ، وعلى قول غيره انه لم يلتفت الى قوله - يعني قول خالد بن برمك - أيضا وتركه ...» وسابور بن أردشير هو سابور الاول الذي ذكرت آنفا أنه حكم من سنة ٢٤١ الى سنة ٢٧٢ » .

وقال جارالله الزمخشري في كتابه ربيع الابرار : « الايوان ، من بغداد على مرحلة ، بناه كسرى أبرويز في نيف وعشرين سنة ، طوله مائة ذراع في عرض خمسين في سمك مائة - يعني في ارتفاع مائة - من الآجر الكبار والجص وثخن الازج - يعني العقد - خمس آجرات ، وطول الشُرف - يعني النواتىء البنائية العمودية في حافة السطح - خمس عشرة ذراعا ، ولما بنى المنصور بغداد أحب أن ينقضه ويبني بنقضه ، فهدمت ثلمة فبلغت النفقة عليها مالا كثيرا » ، الى أن قال : « وتذاكر حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي أمر الدنيا فكان من أعجب ما ذكر أن أعرابيا من قبيلة غامد كان يرعى حول الايوان شويهات

---

(٢) وسما أبو جعفر الطبري في تاريخه « الأرمانيين » ، وليست لهم صلة بالارمن وان تشابهت أسماؤهما .

فاذا كان الليل آواها الى سرير رخام في الايوان كان يجلس عليه ابرويز » • وذكر سيتون نويد الآثاري الانكليزي في كتابه الرافدان في الكلام على كسرى الاول أنوشروان : قال « وفي طيسفون عاصمته الشتوية رمم بل جدد قصر سابور العظيم وزاد فيه وهو ذلك القصر الذي ما زالت بقايا ايوان الحفلات الكبرى فيه وهي المسماة (طاق كسرى) من أشهر المباني العتيقة الشاخصة في العراق ••• وعلى كل حال فهو اليوم أكبر طاق في العالم معقود بالآجر دون استعمال الخرسانة المسلحة ويربو عرضه على خمسة وعشرين مترا ويبلغ علوه عن مستوى النبليط سبعة وثلاثين مترا ، وقد عقد الطاق دون أن يعمد على شيء في أثناء البناء والانشاء باسلوب شاع في البنايات الفارسية الاخيرة وقوامه أن كل حلقة من الطاق يتعامد آجرها مع آجر الحلقة التي قبلا وتستند اليها وتعتمد عليها وفي وسع الانسان أن يغفل ما تذكره الاخبار من وجود عمد العاج والجدران المكسوة بالمعدنيات الثمينة في هذا البناء ، والذي يثير استغراب الزائر المار اليوم صغر المداخل التي في جوانب الردهة الثلاثة وأن الجانب الثالث كان في ظاهر الامر مكشوفا ••• ان المبدأ الاول الذي أسس بحسبه هذا البناء لذو علاقة ببيت الشعر دون مباني الحجر فكل امرىء شهد بيت شيخ قبيلة وفي وسطه المضيف الواسع المكشوف من أمام ، وعلى جانبيه مساكن العائلة المصنوعة أوجهها من القصب لا يسعه أن ينكر الشبه التام بين البيت والايوان ••• ومن المفيد أن نذكر أن الأواوين الكبرى في معبد الحضر وقصرها لها هذه الصفات أنفسها ، ••• وعلى كل حال يدل ما بقي من الايوان على أنه لا يعدو أن يكون اقتباسا مشوها لفن البناء الروماني وهو مع ذلك مثال للذوق السليم ، أما ثخن جداره فما زال يبلغ ثلاثة أمتار ، وقد مضى على هذا البناء ألف وخمسمائة سنة »[٣] .

وقال كريستنسن في كتابه « ايران على عهد آل ساسان » : « وأشهر القصور التي شيدها الساسانيون طاق كسرى أي ايوان كسرى في أسپانبر وهو القصر الذي تثير خرائبه اعجاب الزائرين حتى اليوم وتنسب الاخبار بناء هذا القصر الى كسرى الاول ، وقد نفى هرزفلد هذه الرواية وقال انه شيد في عهد سابور الاول ، ولكن رويتر يدافع عن صحة الخبر الاول • والطاق هو الايوان في القصر الذي بناه كسرى الاول ، وتبلغ المساحة التي تقوم عليها خرائب هذا القصر ثلاثمائة متر في أربعمائة ، وهي تشمل الطاق وبقايا بناء في الشرفة على مسافة مائة متر منه ، وتلا في جنوبه يسمى (حريم كسرى) وفي شماله خرائب غطت عليها مقبرة جديدة ، والطاق هو الجزء الوحيد من هذه العماد أي الابنية الرفيعة ـ الذي بقيت منه خرائب مهمة ، ووجهة هذا البناء شرقية يبلغ ارتفاعها ثمانية وعشرين مترا أو تسعة وعشرين ، وهي جدار بغير كوى تزينه طيقان وصور أعمدة منقوشة وعقود مصفوفة على

(٣) الرافدان « الترجمة العربية ص ١٧٦ـ ١٧٧ » مع اصلاح للترجمة من حيث اللغة العربية الصحيحة الفصيحة •

أربع طبقات ، وجدار سري نجد نظيرا له في المدن الشرقية التي تأثرت عمارتها بالفن اليوناني وخاصة في تدمر ... وكانت الوجهة والايوان قائمين حتى سنة ١٨٨٨ وقد سقط الجانب الشمالي في تلك السنة ، وصار الجانب الجنوبي متوقع السقوط ، وفي وسط الوجهة تعلو القبة البيضية الهائلة شاملة سمك البناء كله أي ارتفاعه ، وهي القبة التي تحتها يهو الاستقبال ـ أي الايوان ـ ومساحته ٢٥٫٦٣ عرضا × ٤٣٫٧٢ طولا ... والطاق بناء بالغ في السذاجة من حيث فن العمارة، وهو يفرض على ناظريه الاعجاب به بأبعاده الهائلة وضخامة أجزائه ، لا بجماله في جملة أو تفصيله ، وكان المجلس المعتاد للملك ويقول فيه ابن خرداذبه : ما بناء بالجص والآجر أبهى من ايوان كسرى بالمدائن ثم يذكر الوصف الشعري الذي أنشأه البحتري :

وكأن الايوان من عجب الصنـ
ـعة جوب في جنب أرعن جلس
مشمخر تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس
ليس يدري أصنع انس لجن
سكنوه أم صنع جن لانس »؟[٤] اهـ

وقال ياقوت الحموي في معجمه : « وقد كان في الايوان صورة كسرى أنو شروان وقيصر ملك انطاكية وهو يحاصرها ويحارب أهلها » . وذكر القصيدة السينية البحترية التي يصف فيها الايوان ويذكر التصاوير عليه وفيها يقول البحتري :

فاذا ما رأيت صورة أنطـ
كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شـ
ـروا ن يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصـ
ـفر يختال في صبغة ورس
وعراك الرجال بين يديه
جفوة منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح
ومُليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحيا
ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقرى منهم يداي بلمس[٥]

أراد أن الصور كانت جد مجسمة حتى ليكاد الناظر يلمس المصورات بيديه يحسب أنهم أحياء يمسون بالايدي .

وكلام سيتون لويد على ايوان كسرى على تناقض ظاهر فيه يفيد أن الايوان انشىء في القرن الرابع للميلاد أي على عهد سابور ذي الاكتاف ، ثم رقم واكمل في أيام كسرى أنو شروان بين سنة ٥٣١ وسنة ٥٧٩ مع أنه يقول في قائمة الملوك الساسانيين : « كسرى الاول (خسرو) وهو كسرى أنو شروان مصلح ورجل دولة ، ربما

(٤) ايران في أيام الساسانيين « ص ٣٧٤ـ ٣٧٦ من الترجمة العربية مع اصلاحها » .
(٥) معجم البلدان في « ايوان » .

كان المشيد لطاق كسرى وقد نهب أنطاكية »[٦]. وذكر الايوان كثيرا في الكتب العربية ولا يمكنني أن أستوفي ذكرها هنا .

وقد عرف الايوان في أبنية الحيرة ، المدينة التي أسسها اللخميون قرب أرض الكوفة ، وانما قلت أرض الكوفة لان الكوفة مدينة عربية اسلامية ، والحيرة مدينة عربية جاهلية ، وقد أنشئت الحيرة في عصر الدولة الساسانية المدولة في الثلث الاول من القرن الثالث للميلاد . فاذا اعتددنا أن عرب الحيرة اتخذوا بنيان الايوان اقتباسا من عرب مدينة الحضرأو الروم المعروفين في تأريخ أوربة بالرومان ، يكون ايوان كسرى تقليدا لابنيتهم ، لانه في التحقيق لا يرتقي الى اكثر من عهد سابور الثاني ذي الاكتاف الذي بلغ أشده وعرف العمارة في الثلث الاول من القرن الرابع للميلاد ، وكان طرز الايوان منشأ في قصر الخورنق بالحيرة ، وأجمعت المراجع التأريخية على أن رازه أي معماره كان روميا ، وكان الخورنق من الابنية العتيقة ، قال كريستنسن « من الثابت ان بهرام جور بن يزدجرد الساساني كان يعيش في قصر الخورنق بالحيرة وهو القصر الذي ينسب بناؤه الى النعمان اللخمي ولكن تاريخه يرتقي من غير شك الى أبعد من ذلك[٧] . وعلى رأي المؤلف برهان قاطع المعجم الفارسي يكون الخورنق هو السدير نفسه ، قال : « سه‌دير هو قصر الخورنق المشهور الذي بناه سنمار [الرومي] وهو عمارة بديعة من غرائب الدنيا وعجائبها ، كان فيه قصران متناهيان في البداعة يسمى أحدهما الخورنق والآخر السدير وكان فيه ثلاث حجرات متداخلة بعضها في بعض كان النعمان يؤدي فيهن فرائض دينه[٨] » . وهذا قول من أقوال المؤرخين ، أما أصل « السدير » فهو فارسي معرب من كلمتين هما « سه » بمعنى ثلاثة و « دير » باللغة البهلوية بمعنى القبة أو البيت المعقود عليه قبة أو جنندة ، فمعناه « البيوت الثلاثة ، لانه كان فيه ثلاث قباب متداخلة[٩] » .

وجاء في تاج العروس : « السدلي معرب واصله بالفارسية سه دله كأنه ثلاثة بيوت كالحاري بكمين كما في العباب واللسان » .

وذكر أبو الحسن المسعودي أن المتوكل على الله الخليفة العباسي المشهور أحدث في أيامه بناءاً لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين - يعني الردنين - والاروقه

(٦) الرافدان « ص ١٥٩ من الترجمة العربية » . وقال المسعودي في المروج : « سكن سابور في الجانب الشرقي من المدائن وبنى هناك الايوان المعروف بايوان كسرى الى هذه الغاية وقد كان أبرويز بن هرمز أتمّ مواضع من بناء هذا الايوان » ، ثم ذكر ان الرشيد حاول نقضه « المروج ج١ ص٢٢٠ » .

(٧) ايران في عصر آل ساسان « ص ٢٦٠ » من الترجمة العربية .

(٨) الحيرة ، ليوسف رزق الله غنيمة « ص ٢٣ » .

(٩) وقال ابن الجواليقي في كتابه المعرّب : « السّدير فارسي معرّب وأصله سادلي أي فيه ثلاث قباب مداخلة ويسميه الناس سه‌دلي ، قال أبو بكر وهو موضع معروف بالحيرة وكان المنذر الاكبر اتخذه لبعض ملوك العجم قال ابو حاتم سمعت أبا عبيدة يقول هو السدلي « فاعرب فقيل سدير ... »

وذلك أن بعض سماره حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنيانا في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب وهيأتها لبهجه بها وميله اليها ، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب اليه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين ، والابواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين اضافة الى الحيرة واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفعله واشتهر الى هذه الغاية[١٠] » . وقد عنى بهذه الغاية أواسط القرن الرابع للهجرة وفيها توفي المسعودي .

أنا لا أشك في أن الصدر الذي ذكره المسعودي هو الايوان وان الرواق هو ما نسميه اليوم الطارمة ، (والطارمة قديما بيت من خشب كالقبة ، على ما جاء في أساس البلاغة للزمخشري) ، ويسميه الفرنسيون ـ اعني الرواق ـ گالري ، فطاق كسرى هو من طراز الحيري بكمين الا أنه لا رواق له ، وأواوين قصر المعتصم المسمى بدار الخلافة بسامرا كذلك ، ولا رواق لها ، وقد اتخذ العراقيون قديما وحديثا « الايوان » في قصورهم ودورهم وجوامعهم ومساجدهم ومدارسهم ومشاهدهم وخاناتهم ، تقليدا لايوان كسرى وأواوين الحيرة وايوان الاخيضر الازجي المفتوح من الجانبين طولا ، فللايوان جمال في البناء ، وقوة في الانشاء واقتصاد في الحضرة أي المواد الانشائية ، وهو صيانة في الحوادث والارزاء كالحريق ، فضلا عن لذة الائتمام والاقتداء ، أما في عصر بني أمية فقد ذكر أبو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني ونقله أيضا عبدالرحمن بن محمد الانباري في نزهة الالبا في طبقات الادبا أن حماداً الاديب الراوية كان ذات يوم في واسط جالسا عند باب الفيل قال : فاذا شرطيان قد وقفا عليّ فقالا : « يا حماد أجب الامير يوسف بن عمر » . الى أن قال : « فاستسلمت في أيديهما وصرت الى يوسف بن عمر وهو في الايوان الاحمر ، فسلمت عليه فرد علي السلام[١١] ... » ، الى آخر الخبر .

وقال ابن قتيبة : « كان يستقبل بصدور ايوانات الملك المشرق أو مهرب الدبور »[١٢] .

وقال أحمد بن جعفر بن شاذان في كتاب « أدب الوزراء » المخطوط في دار كتب ليدن في هولاندا في كلامه على « البنيان وتقدير مواضعه » : « وأصوب مواضع البنيان وأنفعها وأضواها وأحدها للبصر ما بني منه على ما ارتفع من الارض ، فان المسكن اذا بني على تل كان مطلا على المنازل يشرف صاحبه على ما أحب النظر

---

(١٠) مروج الذهب « ج٧ ص١٩٢ » طبعة أوربة .

(١١) الاغاني « ج٦ ص ٧٥ طبعة دار الكتب المصرية » ونزهة الالبا « ص ٤٤ طبعة علي يوسف بالقاهرة » .

(١٢) عيون الاخبار « ص٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية .

اليه ، وأجود ما جعلت اليه أبواب المنازل المشرق واستقبال ريح الصبا ، فان ذلك أصح للأبدان ، لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليه ، وينبغي للبيوت أن توسع ويرفع سمكها – يعني ارتفاعها – ... وتقدير الايوان الاعظم أربعون ذراعا في عشرين ذراعا والدار التي بين يدي الايوان ثمانون ذراعا في ثمانين ، والبهو طوله ثلثا عرضه ، والبيت الشتوي طوله أضعاف عرضه والمخرج طوله مثلا عرضه »[١٣] . اهـ

ولما بنى أبو جعفر المنصور مدينته المعروفة بمدينة السلام اتخذ ايوانا في قصره منها المسمى قصر الذهب أو قصر باب الذهب ، وأكثر من بناء الطيقان لان المدينة بنيت على أنها حصن دفاعي كبير ، والحصون معرصة للاحراق بأنواع من النيران الحربية ، فطاقات باب البصرة وطاقات باب خراسان وطاقات باب الشام وطاقات باب الكوفة عشرات ، وكان ببغداد طاقات أبي سويد وطاقات الغطريف وطاقات العكي وطاقات الحراني وطاق فضائل وطاق أسمار الذي كان فيه قبة الشعراء ومجمعهم ، الذي يقول فيه بعض الشعراء وقد رأى قمرية في قفص معروضة للبيع :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمعي المهراق
كانت تغرد بالاراك وربما
كانت تغرد في فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق فأصبحت
بعد الاراك تنوح في الاسواق
فجعت بافرخها فأسبل دمعها
ان الدموع تبوح بالاشواق[١٤]

الى آخر الابيات .

وقد ذكر الصولي في كتابه الاوراق ايوان المنصور ، قال قال يوسف بن القاسم بعد أن ذكر خوفه من المنصور : « فصرت الى أصحابنا في الديوان فكنت أعمل معهم فجاءني يوما خادم فقال لي : أمير المؤمنين يطلبك . فقمت معه موطنا نفسي على الهلاك ، فأدخلني وأنا أرعد فلما صرت عند باب الايوان قال لي الربيع : سلم على أمير المؤمنين[١٥] ... » الى آخر القصة .

واتخذ الامين ايوانا فخما ببغداد ، فقد جاء في كتاب طبقات الشعر المنسوب الى ابن المعتز قول بعض الرواة : « بني للمخلوع – يعني الامين – مجلس لم تر العرب والعجم مثله ، قد صور فيه كل التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش بمثل ذلك من الفرش » الى أن قال : « وكان فيمن حضر أبو نواس فكان فيما رأوا أساً لم يروا مثله قط ، ولم يسمعوا به من ايوان مشرف فائح فاسح يسافر فيه البصر وجعل كالبيضة بياضا ثم ذهب بالابريز المخالف بينه باللازورد ، ذي أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب قد قمعت رؤوسها بالجوز

---

(١٣) الخزانة الشرقية « ٢:١٤٦ » لحبيب الزيات الشامي .

(١٤) في الاصل « بالمشتاق » وهو ناب .

(١٥) الاوراق « ١:١٥٠ » .

النفيس[١٦] ... » الى آخر الوصف .

وقال أبو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني : « أخبرني يحيى بن علي بن يحيى المنجم قال حدثت عن حماد بن اسحاق [ابن ابراهيم الموصلي] قال حدثني علويه الاعسي قال : « أتيت أباك اسحاق في داره هذه يوما وقد بنى ايوانها وسائرها خراب فجلسنا على تل من تراب فغناني لحنه في [قول جرير] :

غيض مـن عبراتهن وقلى لي
ماذا لقيت من الهوى ولقينا[١٧] ! »

اهـ .

واتخذ المعتصم في قصره بميدان الرصافة ايوانا ، قبل انتقاله الى أرض سامرا وابتنائه هناك ، فقد روى المرزباني في كتابه الموشح بسنده الى أحمد بن محمد اليزيدي والصولي في كتابه الاوراق وأبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين قال : « لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان وهو القصر الذي كان للعباسة ـ يعني العباسة أخت الرشيد ـ جلس فيه وجمع أهل بيته وأصحابه ، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج وجعل سريره في الايوان المنقوش بالفسافس الذي كان في صدره صورة عنقاء فجلس على سرير مرصع بأنواع الجوهر على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة ، وفي الايوان أسرة آبنوس عن يمينه وعن يساره من حد السرير الذي عليه المعتصم الى باب الايوان[١٨] ... » .

وذكر الطبري في أخبار سنة (٢٦٠هـ) أنه وردت كتب يعقوب بن الليث الصفار على السلطان ـ يعني الخليفة ـ في ذي القعدة فقعد جعفر بن المعتمد على الله وأبو أحمد بن المتوكل في ايوان الجوسق وحضر القواد[١٩] » . وهو الجوسق الخاقاني الذي بناه خاقان للمعتصم بالله ولعلّه القصر المعروفة اطلاله اليوم بسامراء باسم « المنقور » .

وشاع اتخاذ الايوان في ايران أيضا فقد ذكر الشريف الرضي في تفسيره العظيم حقائق التأويل في متشابه التنزيل حكاية عن القاسم بن سل النوشجاني قال : كنت بين يدي المأمون في ايوان أبي مسلم بمرو وعلي بن موسى الرضا ـ ع ـ قاعد عن يمينه ، فقال لي المأمون : يا قاسم أي فضائل صاحبك افضل[٢٠] ... ؟ » الى آخرها .

وذكر زكريا القزويني في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » في كلامه على مدينة ساوه بايران قال « وبها رباطات ومدارس ومارستانات، والطاق الذي على باب الجامع وهو طاق عال جدا مثل طاق كسرى على طرفيه منارتان في غاية العلو ، ليس في شيء من البلاد مثله[٢١] » .

---

(١٦) طبقات الشعراء لابن المعتز « ص ٢٠٩ من طبعة القاهرة » .
(١٧) الاغاني « ج١٦ ص٣٢٠ طبعة دار الكتب المصرية » .
(١٨) كتاب الذخائر والتحف « ص ١٢٦ » الموشح « ص ٣٠١ » .
(١٩) تاريخ الطبري « حوادث سنة ٢٦٠ » .
(٢٠) حقائق التأويل « ١١٢:٥ طبعة النجف » .
(٢١) آثار البلاد « ص ٣٨٧ طبعة صادر ببيروت » .

وفي رباط شرف بخراسان (وأطلاله باقية حتى اليوم) عدة أواوين ، وبانيه الوزير شرف‌الدين أبو طاهر بن سعدالدين بن علي القمي وقد وزر للسلطان سنجر بن ملكشاه سنة ٥١٥ • وفي الجزء الاول من كتاب « آثار ايران » بالفرنسية بحث بنائه وخطته وريازته وأواوينه[٢٢] ، جزيل الفوائد ، ويراد بالرباط عندهم أيامئذ « الخان » أما الرباط أي التكية فكان يسمى عندهم « الخانقاه » •

وأود الاشارة بعد هذا التفصيل الى ايوان دار الصخر بدار الخلافة العباسية وايوان جامع ابن المطلب ببغداد وايوان جوسق بدرالدين لؤلؤ بالموصل ، وأواوين المدرسة المستنصرية وايوان الطب خارجها ، وايوان دار المسناة المعروفة رسميا بالقصر العباسي في القلعة العتيقة ، وايوان دار القرآن المستنصرية واكثرها قائم مرمم ، وقد بقي طراز الايوان بين الحجرتين والرواق متبعا في أبنية العراق جميعها حتى العتبات المقدسة في القرى الكبيرة منذ العصور القديمة التي أشرت اليها الى ما قبل ثلاثين سنة ، فقد تركه الناس ولم يتخذوه في مبانيهم ، وسينسى عما قريب ويصبح تاريخيا وهذه سنة التطور الحضاري • وما أغربها فقد كانت الدار التي لا تحتوي على ايوان لا تعد دارا تستأهل السكنى ولا تدل على قدرة ساكنها المالية !!

الكنيسة :

اما الكنيسة فلا اريد بها الكنيسة العصرية المعروفة عند الناس بل الكنيسة العمارية ، وقد اهملها العلماء الذين عالجوا تاريخ فنون البناء والانشاء والريازة والعمارة الاسلامية ، لانهم لم يعرفونها ، والكنيسة في الاصل متعبد اليهود في البدو والحضر ، وتسمية بيعة النصارى بالكنيسة من باب المجاز والاتساع والاستعارة الاسمية ، وان وردت في قول النابغة الذبياني :

ان من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جآذرا وظباءاً

أراد بيعة النصارى بالحيرة ، جاء في لسان العرب « وكنيسة اليهود وجمعها كنائس وهي معربة أصلها كنشت ، [وقال] الجوهري [في الصحاح] والكنيسة للنصارى » • وقال الزمخشري في أساس البلاغة : « وهذه كنيسة اليهود وكنائسهم » • وقال الفيومي في المصباح المنير : « والكنيسة متعبد اليهود ، وتطلق أيضا على متعبد النصارى ، معربة ، والكنيسة [أيضا] شبه هودج : يغرز في المحمل أو في الرحل قضبان ويلقى عليه ثوب يستظل به الراكب ويستتر به والجمع كنائس مثل كريمة وكرائم » • والظاهر أنه أخذ الوصف من المطرزي وقال المطرزي في كتابه (المغرب في ترتيب المعرب) : « والكنيسة في الاجارات شبه الهودج : يغرز في المحمل أو

(٢٢) آثار ايران ج١ ص١١ (Athar e Iran I. 11)

في الرحل قضبان ويلقى عليها ثوب يستظل به الراكب ويستتر به ، فعيلة من الكنوس وأما كنيسة اليهود والنصارى لمتعبدهم فتعريب كنشت ، عن الازهري ، وهي تقع على بيعة النصارى وصلاة اليهود » ، وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان : « الكنيسة بلفظ كنيسة اليهود ، بلد بثغر المصيصة ، ويقال لها الكنيسة السوداء » . فقوله : « بلفظ كنيسة اليهود » يدل على أن الكنيسة لليهود ثم استعيرت للنصارى بمعنى البيعة ، وتسمى اسرائيل اليوم مجلس النواب « كنيست » .

ومرادي بالكنيسة في فن العمارة الاسلامية هو المعنى العربي أي غرز قضبان في الهودج أو المحمل والقاء ثوب أي قماش عليها ليستظل به الراكب ، فقد انتقل هذا الطراز من الانشاء من البداوة الى الحضارة ، ومن القضبان والقماش الى العمارة ، كما انتقل بيت الشعر الى بيت المدر ، والآجر والحجر ، وانا لا أشك في أن كنيسة اليهود كانت في أول انشائها ككنيسة الهودج والمحمل ثم أصابها التطور ، وان قلت العكس جاز ، فان المراد التشابه بينهما ، وروى تاج الاسلام ابن السمعاني في كتابه الانساب بسنده الى سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي قال : « خرجت حاجا فنزلت عن محملي وركبت حمارا أخرته خلف القطارات فاذا أنا باعرابي ، فلما انتهيت اليه قال : يا هذا لمن هذه القباب والكنائس؟ قلت : لرجل من باهلة[٢٣] ... » الخ فهذه هي الكنائس العربية التي قدمت وصفها ، وفيها ورد قول الشاعر في النكتة الادبية المشهورة :

حولوا عنا كنيستكم
يا بني حمالة الحطب !

فالكنيسة البدوية الصحراوية معروفة ، وأما الكنيسة الحضرية العمارية فهي مجهولة الشكل علميا ، وقد ورد ذكرها كثيرا في كتب الادب والتاريخ ، ولم يستطع أحد شرحها وايضاحها ، من ذلك ما ورد في الكتاب الذي نشرناه غلطا باسم « الحوادث الجامعة » في حوادث سنة ٦٧٥هـ على عهد الملك أبغا بن هولاكو وولاية علاءالدين عطا ملك الجويني للعراق ، قال : « وفيها تكرر وقوع النار في أسواق بغداد ومساكنها من منتصف المحرم الى آخر صفر ، فلم يخل الانذار بوقوعها ليلا ونهارا واشتد خوف الناس لذلك وأمر علاءالدين صاحب الديوان بعمل حياض في دروب بغداد وأن تملأ ماءاً ، ويستعد الناس في السطوح بالماء لاطفاء النار ولم يعلم سبب ذلك انما كان الانسان يرى النار في كنيسة داره أو خصها[٢٤] » . فعلق الاب انستاس الكرملي اللغوي المشهور على لفظ « كنيسة » قوله : « الصواب كنبثة الدار أي أعلى

(٢٣) الانساب « ٢٨:٢ » طبعة حيدر آباد الدكن .
(٢٤) الحوادث « ص ٣٩٠ طبعة بغداد » .

ما فيها المقصود على حجرة واسعة وهي فارسية الاصل من گنبد أو گنبذ بالمهملة والمعجمة ومعناه القبة أو المحل المقصود في أعلى البناء كأنها برعومة الوردة ومنها كلمة جنبذ العراقية وهي الورد الاحمر قبل تفتحه » ، اهـ

وقد وثقت بكلام اللغوي الكبير انستاس يومئذ واقتبست منه للتعليق على كتاب الحوادث بعد جعلي الكنيسة كنبثه ، قلت : « قال بعض العلماء : كنبثة الدار أعلى ما فيها المعقود على حجرة واسعة » ، ثم تذكرت أني رأيت الكنيسة، بأحرفها الكاف والنون والياء والسين بأعيانها • في كتب أخرى ، فاعتددتها تصحيفا لكنبثة ، فمن ذلك ، ما ذكره شمس‌الدين الذهبي في تاريخ الاسلام في ترجمة ابن ابي تراب يحيى بن ابراهيم اللوزي نسبة الى محلة اللوزية وهي محلة الطاطران شرقي بغداد عن ابن نقطة المؤرخ المحدث أنه قال : « دخلت على ابن أبي تراب سنة سبع وستمائة فرأيته مختلا ، ذكر لي ان الملائكة تنزل عليه من كنيسة داره بالثياب الخضر، في هذيان طويل[٢٥] » • قوله في هذيان طويل هو من تعليق المؤرخ لا أن الملائكة كانت تنزل في هذيان طويل •

ومنه ما ذكره ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٧٩هـ قال : « وفي رجب وقعت صاعقة في خان الخليفة المقابل لباب النوبي فأحرقت جزءاً من كنيسة الخان ، وفتتت اسطوانة حتى صارت رميما ، وسقط منه مثل كباب القطن الكبار نارا ، فخر الناس على وجوههم[٢٦] » ثم قال في حوادث سنة « ٥١٠ » هـ « فمن الحوادث فيها أنه وقعت النار في حظائر الحطب ودكاكين الحطب التي على دجلة ، وأكلت النار الاعواد الكبار وجذوع النخل وتطاير الشرار الى دروب باب المراتب فأحرق كنائسها[٢٧] » • ومع هذا التكرار المؤكد المؤيد للفظ الكنيسة كنت أميل الى أنها تصحيف الكنبثة حتى قرأت في كتاب « الظراف والمتماجنين » لابي الفرج بن الجوزي قوله : « دخل ظريف يصلي في مسجد فسرقوا لالكته وهي الحداس ، فخبأوها في كنيسة المسجد ، ففتش فرآها في الكنيسة ، فقال : ويحك لما أسلمت انا تهودت أنت[٢٨] ؟! فثبت عندي خطأ الاب أنستاس ـ وجل من لا يخطىء ـ وتأكد عندي أن الاسم هو الكنيسة بعينها ، لان الظريف المذكور في الحكاية لام اللالكة على دخولها للكنيسة وهي في الاصل لليهود مع أنه مسلم يصلي في المسجد فحين صلاته تركته الى متعبد اليهود •

ولقد نسي اسم « الكنيسة » في الفن العماري العراقي لان الناس تركوا اتخاذها

(٢٥) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ و٢١٢ » •
(٢٦) المنتظم « ٩ : ٢٨ » •
(٢٧) المرجع المذكور « ص ١٨٤ » •
(٢٨) الظراف والمتماجنون « ص ٩١ » •

لدورهم وخاناتهم ومساجدهم ، فكيف كان شكلها ؟ لا يمكنني الجواب الصحيح ، وانما أظن أنها على أسس كنيسة العرب التي قدمت شيئا من اخبارها ، وان اضافها الظريف الى اليهود لاحكام النكتة وتجميل المجون ، والظاهر لي أن للكنيسة العمارية طورا ينبغي أن أذكره وهو بين نزولها من الرحل أو المحمل وصعودها الى السطوح ، ذلك الطور هو عقدها على الارض، على نحو الفسطاط والخيمة الحضارية ، فقد ذكر المسعودي ونقله منه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أن عبدالله بن علي العباسي عم المنصور أرسل أخاه صالح بن علي ومعه عامر بن اسماعيل الى مصر فلحقوا مروان الحمار ببوصير فقتلوه وقتلوا كل من كان معه من أهله وبطانته وهجموا على الكنيسة التي فيها بناته ونساؤه[٢٩] ... » الخ وقال المسعودي : « لما قتل عامر بن اسماعيل مروان وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه اذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن[٣٠] » ، وقال ابن ابي الحديد : « لما قتل عامر بن اسماعيل مروان ببوصير واحتوى على عسكره دخل الى الكنيسة التي كان فيها فقعد على فراشه وأكل من طعامه[٣١] ... » الخ وأوضح لنا المسعودي الكنيسة في طورها الاوسط بعض الايضاح ، فقد ذكر خبر غزو المأمون ابلاد الروم سنة ٢١٨ قال : « وانصرف المأمون من غزاته فنزل على عين البندون المعروفة بالقشيرة ... فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون ، فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالازج من الخشب ، وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التي قد عقدت له والماء تحته ، وطرح في الماء درهم صحيح فقرئت كتابته وهو في قرارة الماء لصفاء الماء[٣٢] .. » الخ ، فالمأمون عقدت له كنيسة تحت ذلك الازج الخشب المحشو بورق الشجر ، وعقدها له يدل على سرعة انشائها وسذاجة بنائها ـ ان صح أنها بناء ـ فهي اذن كالكوخ أو الطارمة الصغيرة ، في أغلب الظن ، وبقيت علينا معرفة كنيسة السطوح ، وهي غير بيت القصب الذي اعتاد صنعه طائفة من العراقيين في ذلك العصر أي غير الخص الذي سموا صانعه الغرّاد قال الذهبي في ترجمة مكي ابن أبي القاسم الغرّاد المحدث المتوفى سنة

---

(٢٩) شرح نهج البلاغة « ج٢ ص ٢٠٤ طبعة البابي الحلبي » .

(٣٠) مروج الذهب « ١٧٦:٣ » طبعة دار الرجاء .

(٣١) شرح نهج البلاغة « ج٢ ص٢٠٥ » طبعة البابي الحلبي .

(٣٢) المروج «٢ : ٣٤٣ طبعة المطبعة البهية»

٥٩٣ : « والغرّاد هو الذي يعمل البيوت من القصب في أعلى المنازل وهو بغين معجمة[٣٣] » .

هذا ما سنح لهذا الفكر الضعيف ، فأرجو الصفح والتغاضي عن قِصَرٍ فيه من قول طفيف ، وحسبي أني أجبت دعوة الداعي وان قصر باعي والسلام عليكم .

١٩٦٩/٢/١٠ مصطفى جواد

(٣٣) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية ١٥٨٢ و٧٣ » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى